

## الكَنَدَة

### طارق عسراوي، فلسطين

مثل سائح عَبَّرَ زيادُ بوابة مدينة نزوى التاريخية، لكن المدينة لم تكن مفاجئة له، فهي تشبه إلى حدٍّ بعيد السوق القديمة في مدينته جنين والمعروف بـ"السيباط"، تلك السوق التي جعلها عثمان المؤسس وقفاً شرعياً باسم ابنته فاطمة خاتون. تذكّر دُكَّان والده العطار في مدخل السوق، تتدلَّى من سقفه أحبال ملوَّنة بأحجام متفاوتة وسروج دواب الحرائة، تفترش مدخله وجانبيه أكياس الزعتر والميرمية والفلفل المجفَّف والكركم وأعشاب بريَّة ملونة، كثيراً ما تمَّ مزجها بزيوت عطرية لعلاج الأمراض الجلدية وآلام المعدة وفقر الدم، فقد كان واحداً من أشهر محالِّ العطارة الذي يقصده الفلاحون والحراثون والمرضى في امتداد مرج ابن عامر.

حين قرَّر قطع مسافة 160 كلم من مسقط إلى نزوى، فعل ذلك تأثراً بحديث صديقه الذي بدا مبالغاً فيه عن المدينة، غير المفاجئة، كما قال زياد لاحقاً، ومستدركاً "غير المفاجئة" هنا لا تشمل الطريق، بتلك الجبال الحادَّة على جانبيها، تدرِّج لونها بين البنيِّ والنحاسي والأحمر، انكسار قممها صوب القاع، تعلُّق غيمة برأس جبل مثل بالون هيليوم. وحين وصف الزيارة بعد عودته قال بصورة نهائية إن الطريق إلى المدينة أجمل من المدينة ذاتها. هنا تذكّر زياد حواراً مع حبيبته عن أدب المنفى واستشهادها بمحمود درويش حين قال إن "الطريق إلى البيت أجمل من البيت"، على الرغم من أن زياد، شخصياً، لم يصدِّق ذلك قطّ.

أوقف زياد سيارته المستأجرة في موقف مسجد المدينة الكبير، وعند مدخل السوق. وقف أمام سورها العالي الذي يحيط بها، وبدت مثل قلعة كبيرة، ما منح المدينة سمة مميزة: أشجار نخيل تشي بعافية علاقة المكان وإنسانه معاً، دكاكين صغيرة تحت الأقواس، كوفيَّات وأقمشة ملوَّنة معلَّقة على واجهات الدكاكين، رائحة ألبان تتضوع في الهواء، بسطاتٌ تعرضُ أصنافاً من حلوى التمر المعجون بالزعفران والعسل، زركشات الكمة الملوَّنة تعتمر رأس رجال السوق، ما ينفى مقدرة زائر مثله على ممايزة رجل عن آخر، فقد بدا رجال السوق لوهلة كما لو أنهم صورة رجل واحد.

اشترى كوفيَّة ملوَّنة بالأصفر والبنيِّ، وعلبة صغيرة من حلوى التمر وسار في السوق دون خطَّة.

استوقفه في مدخل السوق دُكَّان لبيع السلاح وتصليحه، وهو المصاب بحمى البنادق، والسلاح هاجسه العميق. وجد نفسه في الدُكَّان يتملَّى شاخصاً في البنادق المعروضة، مرصوفة في خزائن خشبية، نظيفة وصقيلة، ضوء

خافت مسلط على سطوحها، وقطع غيار مكومة في سلال على الأرضية، لكنّ ثمة إحساس بارد سوف يسري في قلبه، لأنها المرّة الأولى التي يقف فيها بين بنادق مخصّية، غير معدة للاشتباك، منتصبه خلف الواجهات في انتظار مملّ، كما لو أنهنّ مومسات شوارع لندن الخلفية الواقفات تحت المزاريب.

لم تغوهِ البنادق هذه المرّة. كيف لبندقية أن تكون خالية من الأدرينالين أن تصير سلاحاً، مثل هراء القهوة دون كافيين، أو مثل حُبّ دون جنس. ودّ لو تفقّد واحدةً من البنادق المعروضة، لكنه انتبه لرجل يجلس عند عتبة الدكان بزّيه التقليدي، ثوب بلون التراب طويل واسع، مزّر بحزام مليء بالرصاص يلفّ خاصرته، ينظفها بقطعة قماش خشنة، فجلس قربه على الحافة الأسمنتية المطلّة على السوق، واستأذنه بحمل البندقية. مرّر باطن كفّه فوق خشب امتدادها الداكن، ضغط مفتاح مخزن الذخيرة، وانتزعه عن جسد البندقية وهو يتمتم: "إنجليزية أم عشر طلقات."

- "تقصد الكَنَدَة؟" قال صاحب البندقية.

- "آه، الناس سمّتها كَنَدَة لأنهم ظنّوا حين وصلت شحنة منها على بواخر كندية، إنها بارودة كندية، بس هي فعلياً إنجليزية على اسم اللي صنعها "لي إنفيلد"، وعنّا بالبلاد كل بارودة إنجليزية بنسّميتها مرتينه."

ركا زياد كعب البندقية على كتفه، مدّ بصره في مركز التصويب، سيعرف من انحرافه النيشان، مثلث التصويب، أن البندقية لا تصلح للأهداف البعيدة، وبتلقائية دَفَع الملقّم إلى الأعلى ثم سحبه إلى الخلف بحركة آلية، ثم انزلق به إلى وضعية تلقيم الذخيرة، وبصوته قال: "بوف"، وهو يضغط الزناد.

حينها تنبّه إلى أن صاحب الدكان يراقب البندقية في يده، وقد بدا زياد في عينيه غريباً يرتدي بنطال جينز وقميصاً مفتوح الياقة، يقلّب البندقية ويمسّد ظهرها كما تُكرم الخيل، يسحب ملقّم الرصاص إلى الخلف وينظر في بيت النار، ويقول بصوت مسموع: "تبدو بندقية هَرَمَة."

عندها خرج صاحب الدكان عن صمته موجّهاً سؤاله لزياد: "هل أعطيك رصاصة ترينا مهارتك في التصويب؟"

نظر زياد في وجه الرجل مبتسماً، ثم جال بنظره في ساحة سوق المدينة: الأواني الخزفية الملونة، رجال يتنابون في ظلّ الدكاكين، طيور حمام مدلّلة على حوافّ السور، كاميرات سائحين تلتقط صوراً لكل شيء. بحث عمّا يصلح لأن يكون مجدياً للتفريط برصاصة، ولو رصاصة واحدة.

عندها أعاد البندقية لصاحبها، نفذ بيديه مؤخرة الجينز، وقبل أن يغرق في أصوات الباعة قال لصحاب الدكان:

متبرّئاً من رصاصة تستقرّ في جسده منذ سنوات: "هل تعلمني؟ فأنا لا أجد استعمال السلاح"